مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يُمكِن أن يُقسِمَ بما هو أعظَمُ منه أقسمَ بنفسِه* قائلاً لأُباركنَّكَ بركةً وأُكثِّرنَّكَ تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظَمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجَرَةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يزيدَ ورَثَةَ الموعِدِ بياناً لعَدَمِ تحوُّلِ عزمِه توسَّطَ بالقَسَم* حتى نحصلَ بأمرينِ لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذينَ التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوعِ أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسِخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على

الأحد الرابع من الصوم

«هلمَّ نعمل في الكرم السرّي صانعين به أثمار التوبة ولا نتعب بالأطعمة والمشارب بل نظفر بالفضائل بالصلوات والأصوام. فبهذه يرتضي رب العمل ويهبنا الدينار الذي به يفتدي الأنفس من دين الخطيئة بما أنه جزيل الرحمة وحده» (ذكصا سحر الأحد الرابع من الصوم).

بهذه الكلمات تذكّرنا الكنيسة، وقد قطعنا نصف مدة الصوم، ان الوقت لم يفت بعد لمن كانت لديه النيّة الصادقة أن يرافق الرب بالصوم نحو آلامه المحيية، لكي يشدّ عزمه ويباشر الجهاد ويحصل على نِعَم الفداء الحاصل بموت الرب على الصليب وقيامته. فمن لم يستطع أن يصوم لسبب ممدوح لا يتوانى خائفاً من أن لا يقبله الرب إن قرر العودة إليه الآن وبدأ جهاد الصوم والصلاة وسائر الفضائل التي علّمنا إياها القديس يوحنا السلمي الذي نقيم تذكاره اليوم. فالرب، كما يقول القديس يوحنا الذهبي الفم في عظة الفصح، «كريم جوّاد. فهو يقبل الأخير مثل الأول، ويربح العامل من الساعة الحادية عشرة مثل العامل من الساعة الأولى. يرحم الأخير ويرضي الأول، يُعطي ذاك ويهب هذا، يقبل الأعمال ويُسر بالنية، يكرّم الفعل ويمدح العزم، فادخلوا إذا جميعكم إلى فرح ربّكم أيها الأولون والأخيرون خذوا أجرتكم».

العدد ١٣/٢٠٠٩
الأحد ٢٩ آذار
الأحد الرابع من الصوم
(أحد القديس يوحنا السلمي)
تذكار أبينا البار مرقس أسقف أريثوسيون، وكيرلّس الشماس وآخرين استشهدوا على عهد يوليانوس
اللحن الثامن
إنجيل السَحَر الثامن

طبعًا، إن القديس الذهبي الفم استوحى كلامه من المَثَل الذي أعطاه الرب يسوع (متى ٢٠: ١–١٦) مظهرًا رحمته التي تفوق رحمة البشر. في هذا المَثَل يتحدث الرب عن رجل صاحب كرم خرج واستأجر عَمَلة لكرمه واتفق معهم على دينار في اليوم. احتاج إلى عَمَلةٍ آخرين فاستأجر عَمَلة جددًا. احتاج أكثر لاحقًا فاستأجر أيضًا. ولما حان وقت الحساب أعطى الكل دينارًا، الأولين والآخرين. احتج الأولون، الذين ارتاحت نفوسهم منذ الصباح الباكر بأن أولادهم لن يناموا دون طعام، احتجوا على الآخرين الذين كانوا في اضطراب طيلة النهار لأن أولادهم قد ينامون دون طعام. الأولون عملوا لأن رب الكرم اختارهم برحمته فلا

رُتبةِ ملكيصادق رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجد له قائلاً يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثُما أخذَهُ يصرعُه فيُزبِدُ ويصرِفُ بأسنانِه ويَيبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرِجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلاً أيُّها الجيلُ الغيرُ المؤمن إلى متى أكون عندكم حتَّى متى أحتمِلُكم. هلمَّ به إليَّ* فأتَوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرَعَهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يتمرَّغُ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صِباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّنْ علينا وأغِثْنا* فقال له يسوعُ إن استطعتَ أن تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِن ساعتَه بدموعٍ وقال إنّي أؤمِنُ يا سيّد. فأغِثْ عدم إيماني*

يحق لهم أن يقسّموا رحمته كما حاول الابن الأكبر أن يقسم رحمة أبيه عند عودة الابن الشاطر. والآخرون لم يشارطوا رب الكرم على الأجرة بل اعتمدوا على رحمته فجاءت رحمته وفيرة وغزيرة. إذًا، لم يفت الأوان لأحد منا، لأن رحمة الرب وفيرة ومجانية لمن لديه الرغبة الصادقة بالحصول على رحمة الرب ونِعَمه.

الدينار الوارد ذكره في الترنيمة أعلاه «الذي به يفتدي (الرب) الأنفس من دَين الخطيئة» يذكرنا أيضًا بالدينار الذي دفعه السامري الشفوق لصاحب الفندق لكي يعتني باليهودي الذي وقع بين يدي اللصوص وضربوه وجرحوه وتركوه بين حيّ وميت (لو ١٠:٣٠–٣٧). هذا اليهودي مرّ به الكاهن واللاوي ولم يمدّا له يد العون. وحده السامري، عدو اليهودي تقليديًا، مدّ له يد العون فصار قريبه لأنه «صنع معه الرحمة».

صلوات سَحَر هذا الأحد الرابع من الصوم تبرز مَثَل السامري الشفوق بشكل كثيف، وتظهر الإنسان مجروحًا بالخطايا الكثيرة التي يرتكبها وعاريًا منهوك القوى، تتعبه الأهواء والتجارب وتتركه بين حيّ وميت على حافة الطريق ولا أحد يُنقذه ولا يملك القدرة على شفاء نفسه، كما تظهره منتظرًا تدخّل المسيح القادر وحده على إخراجه من ورطته. «أيها المخلّص لقد أفسدت عمري بسياط الخطايا من تلقاء لصوص أفكاري، لذلك قد تجردتُ من صورتك الإلهية أيها الإله المحب البشر. لكن أنت ترأف علي»، «أيها السيد المخلّص أنت دفعت نفسك وجسدك فداءً عني وخلّصتني أنا المجروح بكثرة الزلّات جراحات لا شفاء لها بما أنك رحوم» (من الأودية الثامنة).

الرب يسوع هو السامري الشفوق وهو وحده قادر على تخليصنا من هجمات اللصوص، من هجمات الشرير. وحده قادر على شفائنا من جراحات خطايانا، والدينار الذي دفعه السامري هو حياته التي دفعها ثمناً لخلاصنا. هذا ما فعله على الصليب الذي نحن متجهون إليه في الأسابيع المقبلة من الصوم. المسيح يضمّد جراحاتنا ويشفيها بمقدار ما نضع رجاءنا عليه. نستغيث به وهو يضع الضمادات على الجراح، وجسدنا يقاوم معه ضد جراثيم الخطيئة فننجو ونحصل على الخلاص.

تذكار البار يوحنا السلمي في هذا الأحد بالتحديد هو لتعليمنا، عبر تعاليم هذا البارّ، أن الضمادات التي أعطانا إياها يسوع لنشفى ونحصل على نِعَم فدائه الحاصل بالصليب هي الفضائل الثلاثين التي أوردها البار يوحنا في كتابه «السلّم إلى الله» أو «سلّم الفضائل» أو «سلّم الفردوس». يرسم لنا القديس ثلاثين درجة تشكل مراحل التدرج في محبة الرب. فهو ينتقل في الحديث عن الزهد والطاعة والتوبة والوداعة والحقد والثرثرة والكذب والضجر وحب المال والشره والصلاة والسهر الروحي والصوم والتكبر والتواضع. من خلال عيش هذه الدرجات يرتقي الإنسان المسيحي نحو الكمال الأخلاقي الروحي فيحصل على نِعَم الصليب المقدس والقيامة المحيية، يحصل على الخلاص.

في هذا اليوم نتعلّم أن الخلاص هو نتيجة العمل المشترك لنعمة الله فينا ولجهادنا، وأن الله لن يترك أحباءه. نحن نجاهد ونطلب ولكن الذي يخلّص هو الله عبر سكبه نعمة روحه القدوس فينا.

فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكمُ الأصمُّ أنا آمرُك أن اخْرُجْ منه ولا تعُدْ تدخلْ فيهِ* فصرخ وخَبَطهُ كثيراً وخرج منه فصار كالميّتِ حتى قالَ كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخل بيتاً سأله تلاميذُه على انفرادٍ لماذا لم نستَطِع نحن أنْ نُخرِجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أن يخرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يدرِيَ أحدٌ* فإنَّهُ كان يعلّمُ تلاميذَهُ ويقول لهم إنَّ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَه وبعد أن يُقتَلَ يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

... لديك أيضاً طريق آخر للتوبة وهو سهل جداً، وتستطيع به أن تتخلّص من عبء الخطايا، أعني الصلاة. صلِّ كلّ ساعة، ولا تتعب، ولا تتهاون، ولا تتوقف عن طلب محبة الله

حول الإنجيل

تتركّز التلاوة الإنجيلية لهذا الأحد الرابع من الصوم الكبير على موضوع الإيمان: «إنّي أؤمِنُ يا سيّد، فأغِث عدم إيماني» (مر ٩: ٢٤). فالآية التي يقوم بها يسوع، أي شفاؤه الصبيّ المسكون بروح أبكم، ليست إلاّ الإطار الذي، من ضمنه، تظهر أهميّة إيمان والد الصبي. وفي هذا الإطار يتّخذ إيمان الأب كل معناه. هذا الخطّ الذي نجده، هنا، يربط ربطاً وثيقاً الإيمان بالعجيبة التي يقوم بها يسوع، وهذا أمر تشدّد عليه الأناجيل جميعها، حتى إنّه يصبح، في إنجيل يوحنا، واحداً من محاور الإنجيل المركزيّة. فكاتب الإنجيل الرابع لا يذكر من آيات يسوع إلاّ سبعاً، أوّلها تحويل الماء إلى خمر في قانا الجليل وآخرها إقامة لعازر، مصرًّا على أنّ هدف الآية لا يستقيم ما لم تولد الإيمان في نفس من يتلقاها: «وآياتٍ أُخَرَ كثيرة صَنَعَ يسوعُ قُدّام تلاميذِهِ لم تُكتَبْ في هذا الكِتاب، وأمَّا هذه فقد كُتِبت لتؤمنوا» (يو ٢٠: ٣١).

بالعودة إلى التلاوة الإنجيلية، كيف يمكن أبو الصبيّ، الذي أتى إلى يسوع طمعاً في أن يشفي المعلّم ابنه المسكون، أن يتفوّه بمثل هذا القول المتناقض: «أؤمن يا رب، فأغِث عدم إيماني»؟ كيف يمكن الإيمان أن يكون وألاّ يكون في آن معاً؟ في الواقع هذا القول يفصح عن خبرة بشريّة صميميّة هي أنّ الإيمان في النفس الإنسانيّة ليس حالاً جامداً، بل هو متحرّك يضعف ويقوى. لا أحد منّا يبقى على مستوى واحد في إيمانه. كما أنّ كلّ شيء في حياتنا يتبدّل، كذلك فإنّ إيماننا في صعود وهبوط تبعاً للحال التي نحن فيها وتبعاً لما يحوط بنا من شؤون الحياة وشجونها. المهمّ أنّ السيّد لا يجعل الآية التي يقوم بها مشروطةً بقوّة إيمان والد الصبيّ. فهو لا يتطلّب من الوالد أن يكون خارقاً في إيمانه حتى يشفي ابنه. بهذا المعنى، شفاء الصبي نعمةٌ موهوبةٌ للوالد وهو ليس مرتبطاً بعمل سابق مرضٍ لله يجب أن يقوم به. لكنّ يسوع يشدّد، من جهة أخرى، على أنّ توافر الإيمان، مهما كان ضعيفاً، أمر ضروريّ بالنسبة للإنسان. فبذرة الإيمان، مهما تكن صغيرةً، تدلّ على أنّ هذا الإنسان، في العمق، ليس متّكلاً على نفسه وعلى قدراته، بل على الله. والحقّ أنّنا كثيراً ما نختبر محدوديّتنا وضرورة إلقاء همومنا على الله في حالات المرض، أي في ما يماثل وضع والد الصبيّ الذي لم يعد له مفرّ إلاّ اللجوء إلى يسوع. ويتّخذ التشديد على الإيمان كل معناه في سياق المسيرة الجهاديَّة الصياميَّة التي اجتزنا أكثر من نصفها، بحيث يأتي هذا النص تذكيراً للمؤمنين بأنّ غاية صومهم ليست الانقطاع عن الطعام والشراب، بل إلقاء همومهم على يسوع، رفيقهم في مسيرة الجهاد.

يمعن الإنجيليّ مرقس، في هذا النصّ، في وصف الأعراض المرضيّة التي كان الصبيّ يتعرّض لها: «فلمَّا رآهُ للوقت صرَعَهُ الروحُ فسقطَ على الأرض يتمرَّغُ ويُزبِدُ» (مر ٩: ٢٠). ويرجّح شارحو الكتاب المقدّس المحدثون أنّنا، هنا، أمام حالة تشابه حالات الصرع التي نعرفها حديثاً. ما يلفت، في هذا السياق، هو المصطلحات التي يستخدمها الإنجيليّ لوصف عمليّة الشفاء: «فصرخ (أي الروح) وخَبَطهُ

للبشر وهو لن ينساك إن ألححتَ، لكنه سيسامح خطاياك وسيعطيك كلّ ما تطلب إليه، فإن استجاب لك، أُشكرْهُ وتابع الصلاة، وإن لم يستجب، ليس فقط لا تيأس بل توسّله بإصرار. لا تقل: «صلّيت كثيراً ولم يحدث شيء»، لأنّ هذا يتمّ لمنفعتك، أي لأنّ الله يعرف أنك متهاون ولا تبالي وأنك إن حصلت على ما تحتاجه فإنّك ستتوقف عن الصلاة فيما بعد، لذلك فإنّه يتأخّر في إعطائك كلّ ما تطلب لكي تنشغل بالصلاة وتتواصل معه دائماً، لأنك إن لم تصلِّ عندما تكون في حالةٍ صعبة، فماذا ستفعل عندما يكون كل شيء على ما يُرام؟ إذاً يتظاهر الله بأنه لا يسمعك، وذلك لخيرك حتى لا يجعلك تترك الصلاة؛ لذلك تابع الصلاة ولا تتهاون، ولا تستهن بقوة الصلاة التي تستطيع إنجاز الكثير، وكل ما يساعد في مغفرة الخطايا، تعلَّمْه من الإنجيل المقدس.

القديس يوحنا الذهبي الفم

كثيراً وخرج منه فصار كالميّتِ حتى قال كثيرون إنّه قد مات. فأخذ يسوع بيدهِ وأنهضهُ فقام» (مر ٩: ٢٦-٢٧). من الملاحظ أنّنا نعثر، هنا، على المصطلحات إيّاها التي تستخدمها نصوص العهد الجديد لوصف قيامة يسوع مثل «قام» و«أنهض». ويرجّح أنّ هذا التلاقي في المصطلحات مسألة قصد إليها الإنجيلي، لأنّ الصبي بدا لكثيرين على أنّه ميت بعد خروج الروح منه. أهميّة هذه الملاحظة تكمن في أنّ نصوص الأناجيل جميعها، بما فيها تلك التي تصف عمليات إخراج الشياطين التي كان يسوع يقوم بها، إنّما هي مكتوبة انطلاقاً من خبرة القيامة كما عاشتها الكنيسة الأولى، ومفادها أنّ الله لم يتخلَّ عن ابنه الذي مات على الصليب، بل «أنهضه» و«أقامه» وأظهر بذلك أنه قادر على تحقيق مقاصده بواسطة إنسان مصلوب. ينتج من هذا أنّ حادثة إخراج الشيطان الأبكم، كما أوردها الإنجيليّ مرقس، تلفت القارئ إلى أنّ ما يحقّقه يسوع من انتصار على الشياطين خلال الحقبة التبشيرية من حياته إنّما هو مقدّمة للانتصار الأخير على الخطيئة والموت الذي سينجزه بواسطة القيامة.

بعد إخراجه الشيطان، يختلي يسوع بتلاميذه في «البيت» (مر ٩: ٢٨). انفراد يسوع بتلاميذه، بعيداً عن الجمع، مسألة يشدّد عليها الإنجيليّ مرقس في غير موضع. ففي الإنفراد يفسّر يسوع الأمثال لتلاميذه (٤: ٣٤؛ ٧: ١٧)، أو يسألهم عمّا كانوا يتجادلون به في الطريق (٩: ٣٣). وكثيراً ما يتمّ هذا الانفراد في «بيت». والمعروف أنّ المسيحيين الأُول كانوا يلتقون في البيوت لكسر الخبز، ما جعل البيت، إلى حدٍّ ما، رمزاً للكنيسة. ولا يُستبعد أن يكون هذا المعنى الخاص لأهميَّة الإنوجاد في «بيت» ما دفع الإنجيليّ مرقس إلى التشديد على صورة «البيت» الذي يصبح رمز الكنيسة الحيّة حيث يلتقي المسيحيون بيسوع. هنا، التلاميذ يسألون عن عدم قدرتهم على إخراج الشيطان الأبكم. خلفيّة السؤال أنّ يسوع كان، قبل ذلك، قد أعطاهم سلطاناً لطرد الأرواح النجسة (مر ٦: ٧). جواب يسوع، كما ينقله لنا التقليد الليتورجي، يشدّد على أهميّة الصوم والصلاة واقترانهما الواحد بالآخر. هذا ينطبق، أيضا، على مسيرة الصوم التي لا معنى لها من دون الصلاة. مرة أخرى، إذاً، تحذّرنا الكنيسة من أنّ معنى الصوم لا يستنفده الانقطاع عن الأطعمة. فوحدها الصلاة تجعل الإنسان شفّافاً، بحيث تتنزّل عليه النِعَم التي توهّله للإنتصار على الشياطين. وتُختتم التلاوة الإنجيلية بإعلان يسوع السابق عن آلامه: «ابن البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس» (مر ٩: ٣١). الصائمون الحقيقيون يدركون أن طريق الصوم يتكلّل بانخراطهم في ذكرى موت يسوع الذي سيتمثّل أمام عيونهم معلقاً على خشبة في الأسبوع المقدّس. هذا هو المعنى الأساسي للصوم في حياة الكنيسة الأولى: التهيّؤ للإشتراك الليتورجيّ في آلام المسيح وصلبه وقيامته.

٧

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb